

سلسلة كتب الإسلام ووطن
الكتاب المائتان

القرآن
والآيات والآيات
الجزء الأول

د. نور الدين أبو حية

جميع حقوق الطبع والنشر والتصوير والاقتباس
والترجمة والنقل محفوظة لمشيخة الطريقة العزمية

الطبعة الأولى

صَفْرُ ١٤٣٨ هـ - نوفمبر ٢٠١٦ م

عنوان الكتاب	القرآن والأيدي الآتمة
المؤلف	أ.د. نور الدين أبو لحية
الناشر	دار الكتاب الصوفى
عنوان الناشر	١١٤ ش مجلس الشعب - السيدة زينب
رقم التليفون	٠٢/٢٣٩٠١٠٣٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَرِيمًا (٧٧) فِي كِتَابٍ مُكْتُونٍ (٧٨) لَا
يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) {

[الواقعة]

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا
ومولانا رسول الله ﷺ. اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه
وآله الطيبين الطاهرين، ورضي الله عن أصحابه الهادين
المهديين.

أما بعد:

(القرآن الكريم هو حبل الله المتين.. وهو الذكر
الحكيم، والصراط المستقيم.. وهو الذي لا تزيغ به
الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يشبع منه العلماء، ولا
يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه.. من قال به
صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا
إليه هدي إلى صراط مستقيم..)

هذه العبارات وغيرها نسمعها كثيراً.. ونردها
كثيراً.. ولكننا عند التأمل في حياتنا بجوانبها المختلفة نجد
الهوة السحيقة بين تلك الأوصاف العظيمة، وبين واقعنا
الممتلئ بالمآسي.

ولذلك فإننا في هذا السفر نحاول أن نتلمس بكل هدوء تلك الانحرافات التي جعلت المسلمين ينحرفون عن هدي كتابهم، بل يشوهونه.. فيحولونه من كتاب هداية وتبصرة وذكرى وموعظة إلى كتاب تاريخ وأسطورة وخرافة وشعوذة وإرهاب.. أو يعطلون معانيه.. أو يحرفونها تحريفًا شديدًا.

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن هذا الانحراف سيقع في هذه الأمة كما وقع في غيرها من الأمم.. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧).

فقد وجد في تاريخنا وتراثنا الكثير ممن يتتبع المتشابه، ويفسر الدين على أساسه.. بل يؤول المحكم لينسجم مع هواه.. تاركًا الراسخين في العلم الذين أخبر الله أنهم يدركون المحكم، ويفقهون المتشابه.

ولذلك تحول القرآن الكريم بواسطة تلك الأيدي الآثمة إلى كتاب يحض على الكراهية، ويدعو إلى الأسطورة، وينشر الخرافة، ويحرض على الإرهاب، ويفرق بين الناس على أسس عنصرية مقبّنة.

وهذا نفس ما حصل في الأمم السابقة التي هجرت كتابها أو حرّفت معانيه.. كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (آل عمران: ١٨٧)، وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٠١).

ومما ورد في تفسير هذه الآيات قول الإمام الجواد: (وكل أمة قد رفع الله عنهم علم الكتاب حين نبذوه، وولاهم عدوهم حين تولوه، وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرفوا حدوده، فهم يروونه ولا يرعونه، والجهال يعجبهم حفظهم للرواية، والعلماء يحزنهم تركهم

للرعاية^(١).

وقد أشار أبو حامد الغزالي إلى النبذ الخطير لجواهر القرآن وحقائقه العظيمة، فقال: (إني أنبهك على رقدتك، أيها المسترسل في تلاوتك، المتخذ دراسة القرآن عملاً، المتلقف من معانيه ظواهر وجمالاً، إلى كم تطوف على ساحل البحر مغمضاً عينيك عن غرائبها؟ أو ما كان لك أن تركب متن لجتها لتبصر عجائبها؟ وتساfer إلى جزائرها لاجتناء أطايبها؟ وتغوص في عمقها فتستغني بنيل جواهرها؟ أو ما تعير نفسك في الحرمان عن دررها وجواهرها بإدمان النظر إلى سواحلها وظواهرها؟ أو ما بلغك أن القرآن هو البحر المحيط؟ ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين كما يتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهارها وجدولها؟ أو ما تغبط أقواماً خاضوا في غمرة أمواجها فظفروا بالكبريت الأحمر؟ وغاصوا في أعماقها فاستخرجوا الياقوت الأحمر، والدر الأزهر، والزبرجد

(١) الكافي: ٨ / ٥٣ / ١٦.

الأخضر؟) (١).

وقد أشار قبل ذلك كله رسول الله ﷺ حين ذكر الفئة الباغية التي تتحرف بالأمة انحرافاً شديداً، فجعل من أهم أوصافها إقامتها لحروف القرآن، وإعراضها عن معانيه وحقائقه ومقاصده، ففي الحديث عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن بعدى من أمتي) أو (سيكون بعدى من أمتي قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حلقائهم، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرميّة، ثم لا يعودون فيه، هم شر الخلق والخليفة) (٢).

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: (سيكون في أمتي اختلاف وفرقه؛ قوم يحسنون القيل، ويسئون الفعل، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرميّة، لا يرجعون حتى يرتد على فؤقه؛ هم شر الخلق والخليفة، طُوبى لمن قتلهم وقتلوه،

(١) جواهر القرآن (ص: ٢١)

(٢) رواه مسلم.

يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شيء، من قاتلهم كان
أولى بالله منهم^(١).

وبناء على هذه الدعوة من رسول الله ﷺ لمواجهتهم
و حربهم كان هذا الكتاب..

فنحن لا ننقدهم أو نحذر منهم لشهوة في نفوسنا، وإنما
لأنه لا يمكن أن يعرف الناس دين الله، ولا أن يعيشوا في
صحبة كتاب الله، وهم يرون المنحرفين عنه هم الذين
يمثلونه في الإعلام والمنابر وكل المنصات..

وقد بدأ التحذير من هذه الأيدي الملوثة في عهد رسول
الله ﷺ نفسه، وفي القرآن الكريم..

فعندما يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن
يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (لقمان: ٦) فإنه
يشير إلى أولئك الأسطوريين الذين حولوا الحقائق القرآنية
الجميلة إلى حكايات لا تختلف عن حكايات ألف ليلة

(١) رواه أبو داود (٤٧٦٥).

وليلة، أو حكايات رستم واسفنديار التي كان يحكيها
النضر بن الحارث ليشغل بها الناس عن حقائق القرآن
الكريم المتضمنة في قصصه.

وعندما يذكر القرآن الكريم آلام رسول الله ﷺ وهو
يشكو إلى ربه قومه قائلاً: ﴿يَا رَبِّ إِنِّي قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا
الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان: ٣٠)، فإنه يشير إلى ذلك
التعطيل لحقائق القرآن الكريم المرتبطة بالأنفس والآفاق،
والدنيا والآخرة، والانشغال عنها بعلوم كثيرة، وتوافه
كثيرة.

وعندما يدعو القرآن الكريم إلى الاعتصام بحبل الله
وعدم التفرق، كما في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ
جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً
قَالَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران:
١٠٣)، فإنه يشير إلى أولئك ﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا
شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ
بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٩).

وهكذا نجد القرآن الكريم نفسه ينبهنا إلى أن الأمة

ستعطل كتاب ربها في كل شؤون حياتها..
وبناء على هذا حاولنا في هذا الكتاب أن نرسم صورة
لتلك التشويهات التي طالت القرآن الكريم.. وذلك
لغرضين:

الأول: هو التنبيه إلى خطورتها وضلالها وانحرافها،
وأن القرآن الكريم أسمى من أن تعبر عنه تلك الأيادي
الملوثة، وتلك العقول المشوهة.

الثاني: هو الدعوة لإعادة قراءة القرآن الكريم غضاً
طرياً كما أنزله الله، وكما فهمه أولياء الله الذين هم
الصراف المستقيم الذي أوصانا الله بالتمسك به، والاهتداء
بهدية.. وسنكتشف حينها فقط حقيقة مقولة الإمام علي
كرم الله وجهه: (فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير أن
يكونوا رأوه)^(١).

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٤٧.

الإشارة.. والعبارة

في ذلك اليوم قدر الله لي أن أسمع سورة قرآنية واحدة من عقليين وقلبيين مختلفين تماماً.. مختلفين في المشرب، وفي السلوك، وفي التعامل مع قضايا الحياة المختلفة..

وقد تعجبت في البداية عن سر ذلك الاختلاف الشاسع بينهما مع أن كليهما يرفع راية القرآن الكريم، ويدعي أنه خادمه وتلميذه، ولكليهما أتباع وأصحاب.. ولكن مع ذلك كانا، وكأنهما من ديانتين مختلفتين تماماً..

عندما عدت إلى بيتي في الليل بعد مروري عليهما، وبعد محاولة تحليل ما رأيت وما سمعت عرفت سر قوله تعالى: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبُّهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ (الرعد: ٤)، وعرفت أن التفضيل لا يعني التنوع فقط، كالتفضيل الذين نراه بين التفاح والبرتقال وغير ذلك من الفواكه.. وإنما قد يعني أيضاً التفضيل بين العشب التي جعلها الله تريباً لكل الأدوية، وبين العشب التي جعلها سمّاً زعافاً تقضي على كل صحة وعافية.

ولأدع لكم الفرصة لتكتشفوا ما اكتشفت، وتحكموا بما ترونه، سأحكي لكم الحكاية كما حصلت.. ولا تحسبوا أنها حكاية من وحي الخيال.. إنها بنت الواقع المؤلم الذي نعيشه.. ولكنها محروسة بالرمز.. فالذي يفهم الرمز، ويفك شيفرته سيفهم المراد العميق منها.. والذي يفهم العبارة، ولا يجاوزها إلى الإشارة، فحسبه أن يرى قسرتها، وينعم بالنظر إلى طلائها.

الإشارة:

مررت عليه وهو على كرسية الذي تعود أن يجلس عليه بين مريديه وتلامذته.. وكان القارئ يقرأ سورة العصر بترتيل خاشع جميل.
بعد أن انتهى من قراءتها التفت الشيخ إلى المحيطين حوله، وقال: سنحاول أن نستمع للمعاني التي أراد الله

إبلاغنا إياها من خلال هذه السورة الكريمة^(١)..
 إن القسم بالعصر في هذه السورة يفيد كون الإنسان
 يجهل خسارته، ويبعد أن يدركه ما دام لا يشعر بحقيقة ما
 كان عليه قبل تعلق الروح بالجسم المعدني.. أمّا لو تخيل
 ذلك.. عندما كان جوهرًا خالصًا متخلصًا من عموم
 المواد، وسائر لوازم الفساد، لاعترف بخسارته بالنظر لما
 هو عليه الآن، ومن أين له أن يدرك ذلك، وهو مكبل
 بشهوته، مسجون في ظروف طبيعته، وتلك الحالة هي
 أبعد المراتب، وأقصى الغايات التي تبعد به عن نيل
 سعادته الأبدية.

وكذلك يبقى ما دامت بصيرته لم تنفذ إلى ما وراء هذه
 الظروف المحدقة به، ولكن لا تنفذ إلا بتصريح برهان
 ﴿فَانفُتُوا لَا تَنْفُتُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (الرحمن: ٣٣)، وإذ
 ذاك يدرك خسارته بالنسبة لما كان عليه قبل تعلق الروح

(١) اقتبسنا هذا التفسير الإشاري بتصريف من (رسالة مفتاح علوم السر في
 تفسير سورة والعصر) للشيخ ابن عليوة، باعتباره هو شيخ الإشارة في هذه
 الحكاية.. وخصمه السلفي الذي كفره هو شيخ العبارة.

بالبدن، ولو تخيل ذلك لما احتيج للتوكيد.

قال بعض الجالسين: لقد شوقتنا يا شيخنا.. فحدثنا عن عوالم الجمال التي كان يعيشها الإنسان قبل نزوله إلى هذا العالم.

قال الشيخ، وهو شاخص البصر، وكأنه يرى ما لا يقدر على رؤيته، أو كأنه يشاهد شيئاً، وهو يصفه كما يشاهده: في تلك العوالم الجميلة كانت الروح في كرامة عظيمة وحالة جسيمة، تتلقى أمرها من الله من غير واسطة، وتجيب جواباً خالياً من كل شبهة.. ولم تفقد حظها من تلك الكرامة ولو بعد هبوطها وتعلقها بأول جسم للإنسان فإنه توجهها بتاج العلم، وكلها بإكليل الفهم، وعلمها ما لم تكن تعلم، وكفاها أنه أسجد لها الملائكة، وعموم الأرواح كالذر وفي ظهر آدم.

قال تلميذ آخر: فكيف انتقل الإنسان من تلك الأحوال السامية إلى الأحوال الحيوانية، وما قدر الخسارة التي خسرها بسبب ذلك؟

قال الشيخ: إن رابطة الجسم أكسبت الروح صبغة

غير التي كانت عليها، فلم يشعر الإنسان إلا وهو نوع من أنواع الحيوان يعمل بحكم الطبيعة داخل الجنس العام، وشتان ما بين المرتبتين.. بين حال الإنسان الأول، وحال الإنسان الثاني.. فعلى ما يقتضيه البون الشاسع بين الرتبتين صار كأنه لم يكن هو.. بل ليس بمستبعد إن قلنا: إنَّ الإنسان الأول هو غير الإنسان الثاني مهما كان يطلق لفظ الإنسان على المعنيين.

قال تلميذ آخر: أنت تشير بهذا إلى الحقيقة الإنسانية، وأن ما عليه الإنسان الآن ليس سوى نشأة من النشآت، وأن هناك نشآت كثيرة سابقة، كان الإنسان فيها في أعلى عليين..

قال الشيخ: أجل.. وقد عبر العرفاء عن ذلك النزول بـ (قوس النزول).. ويعنون به ذلك العالم الذي يبدأ من العقل والمجردات التامة والملائكة المقربين، وينتهي إلى أدنى موجود وهو الهبولى والمادة الأولى لعالم الطبيعة.

قال التلميذ: وجود قوس نزول يقتضي وجود قوس صعود.

قال الشيخ: أجل.. وهي التي أشار إليها قوله تعالى:
﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾
(البقرة: ٤٦)، وقوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾
(البقرة: ١٥٦).

قال التلميذ: فكيف يحدد مصير الإنسان في قوس
الصعود؟

قال الشيخ: هذه النشأة هي المنطلق لتحديد مصير
الإنسان النهائي.. فباستطاعة الإنسان أن يتدارك ما فاته
من عزة.. وليس ذلك إلا أن يكون بالروح إنساناً، وذلك
يتم بالتحقق بمقتضى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر:
٣).

فالخلاص النهائي لا يتحقق ولا يتصور بمعناه اللازم
إلا باستجماع تلك الخصال الأربعة وهي: الإيمان،
والأعمال الصالحة، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر
عليه، أما إذا فات الإنسان - والعياذ بالله - حظّه من
الإيمان في هذه الحياة الدنيا، فقد خسر خسراناً مبيحاً

يجعله يقول يوم يرى سعادة السعداء بالنظر إلى شقاوة
الأشقياء: ﴿يَالْيَتِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (النبا: ٤٠).

أما إذا نال حظّه من الإيمان في هذه الدنيا بالقدر الذي
يفصله عن محيط الكفران بالله ورسوله، فقد يتقدّم
بذلك شوطاً غير قصير في سبيل سعادته ونيل بغيته.

ولكن لا تثبت أقدامه في ذلك الدور إلا بالأعمال
الصالحة، والأعمال الصالحة هي جنس يدخل تحته أفراد
كلّ فعل محمود، ويخرج منه كلّ فعل مذموم.

وهذا الدور يعتبر أرفع درجة في نيل السعادة غير أنّه
لا تستقر أقدام صاحبه استقراراً تاماً إلا مع التواصي
بالحق، ومن لم يتواص بالحق قل أن يصبر في طريق
الحق، بناء على أن رأس الأعمال الصالحة هو الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن لم يمه ويأمر يخش
عليه يوماً من الأيام يصبح فيه حيث لا نهي ولا أمر.

وهكذا يسير المؤمن من العرفان إلى الشريعة، فيتمسك
بها، فلا طريق إلى الله إلا من خلالها.

أصابتي رعشة شديدة، وأنا أسمع لهذه الكلمات.. لقد

كانت تنبيهات قوية تنبهه كل راقد وقاعد وراكن إلى الدنيا
ليقوم بالاستعداد لصناعة مصيره الأبدي قبل أن يتحسر
حسرة لا حد لها..

ظل الشيخ يردد ذلك، ويشرحه بطرق مختلفة، وكان
تلاميذه وكأن على رؤوسهم الطير سكوناً وخشوعاً..
وكان المكان البسيط الذي كنا نجلس فيه قد تحول إلى
قطعة من عالم الملكوت الواسع الجميل.

بعد أن انتهى الشيخ من درسه، التفت إلى مردييه،
وقال: من فهم منكم من السورة شيئاً آخر، فليتقدم به..
فأنتم تعلمون أن القرآن الكريم لا تنتهي عجائبه، ولا تفنى
عطاياه.

رفع أحد التلاميذ يده، وقال: يا شيخ.. ائذن لي أن
أطرح لك إشكالاً وقع لي، ولبعض زملائي.. ولكن لا
علاقة له بالسورة الكريمة.

أذن له الشيخ، فقال: سيدي مع احترامنا لك ولمجلسك،
وللعلوم العظيمة التي نستفيدها منك، ولما نراه من تأثيرها
على حياتنا جميعاً.. إلا أن هناك من يعيبون علينا جلوسنا

بين يديك.. وهم يذكرون لنا بأنك لا تحمل أي إجازة من مشايخ الحديث أو اللغة أو غيرها حتى يتاح لك أن تتكلم في القرآن الكريم.. بل يذكرون لنا أنك أُمي.. وليست لك البلاغة الكافية التي تؤهلك للحديث عن القرآن الكريم.. لقد ذكروا لنا أن من يرفع المنصوب، وينصب المرفوع أقل من أن يفهم القرآن لنفسه، فكيف يفهمه لغيره.

ابتسم الشيخ، وقال: لقد ذكرتني يا بني بشبابي الباكر عندما كنا ننشغل فيه بالنحو والصرف والبلاغة عن الكنوز العظيمة التي يحويها القرآن الكريم..

كنا حينها نأتي بالآية الواحدة، ونعربها بالوجوه الكثيرة.. وننتفخ مع كل إعراب.. ثم لا نلتفت لمعناها، ولا نعيشه.. بل لا تزيدنا تلك القدرات التي أتاحت لنا إلا حجاباً عن فهم القرآن.. حينها التقيت شيخاً من العارفين، قال لي: (أقبح كل قبيح أن يتعلم الإنسان نحو اللسان ويعلمه، ولا يتعلم نحو القلب ويعلمه، مع أنه محل نظر الرب، فإذا كان نحو اللسان مع نحو الجنان كان صاحبهما في أمان، ولا يخشى عليه الخسارة والخذلان، يوم وقوفه

بين يدي الرحمن؛ لأنَّ الله تبارك وتعالى لا يثيب العباد على إعرابهم، وإنما يثيبهم على قلوبهم^(١).

والتقيت آخر، قال لي: (ما عرفنا من النحو إلا إعراب قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النور: ٣٢)، إنَّ حرف شرط، ويغْنهم جواب الشرط، والمقصود بالغنى الغنى الأكبر فيكون خطابه للمتوجهين على طريق أهل الإشارة)^(٢).

وحكي لنا آخر أن بعض النحويين دخل مجلس الحسن ابن سمعون ليسمع كلامه فوجده يلحن، فانصرف دأماً له، فبلغ ذلك الحسن، فكتب له: [إنك من كثرة الإعجاب رضيت بالوقوف دون الباب، فاعتمدت على ضبط أقوالك مع لحن أفعالك، وإنك قد تهت بين خفض ورفع ونصب وجزم، فانقطعت عن المقصود، هلا رفعت إلى الله جميع الحاجات، وخفضت كل المنكرات، وجزمت عن

(١) ابن عليوة، المنح القدوسية، ص ٢٠.

(٢) ابن عليوة، المنح القدوسية، ص ٢١.

الشهوات، ونصبت بين عينيك الممات؟ واللّه يا أخي ما يقال للعبد لَمْ تَكُنْ معرّبًا، وإنما يقال له: لم كنت مذنبًا؟ ليس المراد فصاحة المقال، وإنما المراد فصاحة الفعّال، ولو كان الفضل في فصاحة اللسان، لكان سيدنا هارون أولى بالرسالة من سيدنا موسى، حيث يقول: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ (التقصص: ٣٤)^(١).

حين سمعت هذا جلست لمشايخي من العارفين.. وقد رأيت من أنوار الفهم عندهم ما فتح لقلبي أنوار الحقائق التي كنت محجوبًا عنها بظلمات نفسي، وظلمات الغرور الذي كانت تمتلئ به.

سكت قليلاً، ثم قال: أنا لا أقول لكم يا أبنائي.. لا تعربوا القرآن.. أو لا تبحثوا عن استعارته ومجازه.. وإنما أقول لكم: عيشوا القرآن.. واسمعوه من الله.. فلا يفقه القرآن من لا يسمعه من ربه.

قال التلميذ: وهذا أيضًا مما يعترضونه علينا.. إنهم

(١) إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص: ٣٨٦.

يذكرون لنا أننا نكفر بذلك.. فرسول الله ﷺ وحده الذي
سمع القرآن من الله.. بل إنه سمعه من الله بواسطة
جبريل عليه السلام.

ابتسم الشيخ، وقال: ألم يقرؤوا قوله ﷺ في حديث
الولاية: (فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به) (١) فـ
(والصفة لا تنفك عن موصوفها، ولا تظهر إلا من حجاب
لبسها، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ
وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ (الشورى: ٥١) موسى ﷺ لما سمع
خطاباً من جانب الطور الأيمن لم يستدل على أنه كلام الله
يكلمه به إلا به من أجل ما أعطي من سلامة الذوق
وصحة الوجدان، وهكذا الواحد منا مهما تقوى يقينه
وانشرح باطنه فيما يسمعه من ألفاظ القرآن، فلا يراه إلا
كلاماً يكلمه الله به في ذلك الحال، ولا يستدل عليه إلا به
لما يحده في قلبه من تأثير النزول ورعدة الزواجر) (٢).

(١) صحيح البخاري (٨ / ١٣١)

(٢) ابن عليوة، البحر المسجور، ص ١٩.

لقد ذكر لي شيخي بعض ما يحصل لسامع القرآن من الله من تأثير حين سماعه، فقال: (وهكذا لما ينزل به على محمد ﷺ يحصل من تأثر النزول ما ترتعد به مفاصله، ولن يزال هكذا مهما مر على قلب فارغ من الكدورات إلا ويحدث فيه من تأثير النزول، وقد كان لي نصيب من ذلك والحمد لله، فكنت مهما يطرق سمعي كلام الله فترتعد بوادري عن الفحص حتى كأني أسمع حسيماً من بقية صلصلة الجرس، وكنت إذا ما تناولت المصحف الكريم نتناوله بيد التبجيل والتعظيم، وأراه كتاباً وصل إلي من حكيم عليهم.. وبهذه الخاصية والحمد لله أطلعني الله على بعض من جواهره)^(١).

قال التلميذ: لو قلنا لهم ما ذكرته الآن لرمونا بالحجارة.

قال الشيخ: فقولوا لهم^(٢): إن مرادنا من سماع القرآن

(١) البحر المسجور: ١٩ - ٢٠.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٥)

من الله لا يعني إلا أننا نعتبره خطاباً مباشراً من الله لنا.. أي أننا المقصودون بكل خطاب في القرآن الكريم، فإن سمعنا أمراً أو نهياً قدرنا أننا المنهيون والمأمورون.. وإن سمعنا وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك.. وإن سمعنا قصص الأولين والأنبياء علمنا أن السمر غير مقصود وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي ﷺ وأمته ولذلك قال تعالى ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ١٢٠) فليقدر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله تعالى.

وكيف لا يقدر هذا، والقرآن ما أنزل على رسول الله ﷺ لرسول الله خاصة، بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين، ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب فقال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ (البقرة: ٢٣١)، وقال عز

وجل: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾
(الأنبياء: ١٠).. وغيرها من الآيات الكريمة، وإذا قصد
بالخطاب جميع الناس فقد قصد الأحاد، فهذا القارىء
الواحد مقصود، فما له ولسائر الناس، فليقدر أنه
المقصود، قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ
لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ (الأنعام: ١٩)، وقد قال بعض
مشايخنا بعد قراءته للآية الكريمة: (من بلغه القرآن فكأنما
كلمه الله).

وفي هذه الحالة، وعند تقديره أنه المقصود من كل
خطاب، لم يتخذ دراسة القرآن عمله، بل يقرؤه كما يقرأ
العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه، ليتأمله، ويعمل بمقتضاه،
ولذلك قال بعض مشايخنا: (هذا القرآن رسائل أتتنا من
قبل ربنا عز وجل بعهوده نتدبرها في الصلوات، ونقف
عليها في الخلوات، وننفذها في الطاعات والسنن
المتبعات).

وكان بعض مشايخنا في الزاوية يزورنا، ونحن نحفظ
القرآن أو نراجعه، ويقول: (ما زرع القرآن في قلوبكم يا

أهل القرآن، إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض).

قال تلميذ آخر: إنهم يا شيخنا يقولون لنا: إنكم لن تستفيدوا من تلك الإشارات إلا بعدًا عن حقائق القرآن.. فالقرآن عبارة لا إشارة.. وقد يخطئ الإنسان في الإشارة.. لكنه لن يخطئ أبدًا في العبارة؛ لأنها محروسة باللغة والإعراب والبلاغة وكلام أساطين المفسرين.

قال الشيخ: ليس الشأن يا بني أن نعرب القرآن أو نستخرج درر بلاغته.. الشأن أن نتأثر بالقرآن.. فالقرآن يحدث في قلب الإنسان آثارًا مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره.

وهكذا فإن قلب المؤمن إذا تمت معرفته تغلب عليه الخشية في عامة أحواله؛ لأن ذلك من مقاصد القرآن الكريم لتربية النفوس وتطهيرها.. ولهذا لا نرى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقرونًا بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله عز وجل: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ [طه: ٨٢]، ثم أتبع

ذلك بأربعة شروط: ﴿لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه: ٨٢).

ومثل ذلك السورة التي كنا نحاول أن نسمعها من الله، فقد ذكر الله أربعة شروط لتحقيق الفوز والفلاح. ومن فهم ذلك فجدير بأن يكون حاله الخشية والحزن، ولذلك كان بعض مشايخنا يقول: (والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا أكثر حزنه، وقل فرحه، وأكثر بكأؤه، وقل ضحكته، وأكثر نصبه وشغله، وقلت راحته وبطالته).

وقال شيخ آخر، وقد رأنا ننشغل بالروايات والأحاديث عن القرآن الكريم: (نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئاً أرق للقلوب ولا أشد استجلاباً للحزن من قراءة القرآن وتفهمه وتدبره).

وهكذا فإن تأثر العبد بالتلاوة تجعله يصير بصفة الآية المتلوة، فعند الوعيد وتقيد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت، وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح.

وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعاً
لجلاله واستشعاراً لعظمته.. وعند ذكر الكفار ما يستحيل
على الله عز وجل يغض صوته، ويكسر في باطنه حياءً
من قبح مقالتهم.

وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقاً إليها.. وعند
وصف النار ترتعد فرائصه خوفاً منها.

وإذا قال: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ
الْمَصِيرُ﴾ (المتحنة: ٤) ولم يكن حاله التوكل والإنابة
كان حاكياً.

وإذا قال: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ (إبراهيم:
١٢) فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه حتى يجد حلوة
التلاوة.

فإن لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه
الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان مع صريح
اللعن على نفسه في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى
الظَّالِمِينَ﴾ (هود: ١٨)، وهكذا في كل موضع فيه لعنة..
ولهذا ورد في الحديث: (رب تال للقرآن والقرآن

يلعنه)^(١).

وإذا لم يكن يقرأ بهذه الصفة كان داخلاً في معنى قوله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (البقرة: ٧٨) يعني التلاوة المجردة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في قوله عز وجل: ﴿وَكَايِئٌ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (يوسف: ١٠٥)؛ لأن القرآن هو المبين لتلك الآيات في السموات والأرض.. ومهما تجاوزها ولم يتأثر بها كان معرضاً عنها.

كان بعض مشايخنا يمر علينا، ونحن نقرأ القرآن في الزاوية، ويقول لنا: (ياكم وأن يكون حظكم من القرآن إقامة حروفه.. فإن من لم يكن متصفاً بأخلاق القرآن، إذا قرأ القرآن ناداه الله تعالى: مالك ولكلامي وأنت معرض عني، دع عنك كلامي، إن لم تتب إلي)

قال ذلك، ثم التفت لتلميذه الذي سأله، وقال: هل تعلم

(١) ابن أبي حاتم في تفسيره ج: ٦ ص: ٢٠١٧.

ما هو مثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرره؟

قال التلميذ: وما مثاله؟

قال الشيخ: مثله مثل من يكرر كتاب الملك في كل يوم مرات وقد كتب إليه في عمارة مملكته وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله عز وجل:
﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (آل عمران: ١٨٧).

وأشار إلى حال المؤمنين عند قراءته، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال: ٢).

قال لي بعض زملائي أثناء التحصيل: قرأت القرآن على شيخ لي، ثم رجعت لأقرأ ثانياً فانتهرني، وقال: جعلت القرآن علي عملاً، اذهب فاقراً على الله عز وجل،

فانظر بماذا يأمرك وبماذا ينهاك^(١).

قال التلميذ: اسمح لنا سيدنا أن نذكر لك ما يبثره فينا تلاميذ شيخ العبارة من الإشكالات.
قال الشيخ: اذكر ما بدا لك.. فمتى حجرت عليكم أن تسألوني؟

قال التلميذ: لقد ذكروا لنا أن الله أكرم وأعدل من أن يخص أحداً دون أحد بفهم كتابه.. فالكتاب للناس جميعاً.. وذلك لا تقوم به إلا العبارة.

قال الشيخ: صدقوا في هذا، فإِنَّهُ أَكْرَمُ مَنْ أَنْ يَحْرَمَ خَلْقَهُ.. ولكنه غني كريم، فلا يعطي عطاءه لمن رغب عنه، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هُوَ لَاءٌ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: ٢٠).. فكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهراً، فباطن معناه أيضاً بحكم عزه وجلاله محبوب عن باطن القلب إلا إذا

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٦).

كان متطهرًا عن كل رجس ومستتيرًا بنور التعظيم والتوقير.. وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد، فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب^(١).
لقد سألت شيخي عن معنى الطهارة التي تبيح مس المصحف، فقال: (طهارة أهل المحبة الفكرة والنظرة، وطهارة أهل الخدمة بالمجاهدة والمكابدة بين عبادة ظاهرة وكسالة وصيام وذكر وتلاوة وتعليم.. وبين عبادة خفية وخوف ورجاء وزهد وصبر وورع ورضا وتسليم ورحمة وشفقة وغير ذلك مما لا يظهر للعيان.. وأما طهارة أهل الباطن، فهو الغيبة عن الأكوان بشهود المكون، أو الغيبة عن الخلق بشهود الملك الحق..)^(٢).
قال الشيخ ذلك، ثم التفت لتلميذ آخر، وقال: وأنت..
أظن أنك لديك سؤال.. وأنت تستحي من ذكره.
قال التلميذ: أجل..

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨١).

(٢) إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص: ٧٠ بتصرف.

قال الشيخ: اذكر سؤالك يا بني.. فأنت تعلم أن الحيي محروم من الاستفادة.. مثله مثل المستكبر تماماً.

قال التلميذ: هم يعترضون على ما ذكرته لنا البارحة عند قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِيْ مِنْ لَدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾ (الإسراء: ٨٠).. لقد ذكرنا لهم ما قلته.. فذكروا أنك مخطئ فيها، والصحيح أن هذه الآية نزلت في فتح مكة، وأن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يقول هذا الدعاء عند دخولها حال فتحها، ومعناه: رب ادخني مكة مدخل صدق أي: إدخال صدق، بأن يكون دخولي بك واعتمادي عليك ناصراً لدينك بحولك وقوتك، وأخرجني من مكة مهاجراً إلى جهاد عدوك مخرج صدق: أي: إخراج صدق، بأن أكون منصوراً بك، معصوماً بحفظك ورعايتك، واجعل لي من لدنك سلطاناً: أي: برهاناً دامغاً لكل باطل، نصيراً ينصرني على من عاداني.

قال الشيخ: وهل أنكرت أنا هذا التفسير؟

قال التلميذ: لا.. ولكنك ذكرت لنا معه تفسيراً آخر

استغربوه.. بل قالوا فيك كلاماً شديداً بسببه.
قال الشيخ: لعلمكم أخطأتم يا بني في النقل عني.. فهل
تذكر لي ما قلتم لهم بالضبط؟
قال التلميذ: محال أن نخطئ في ذلك يا شيخنا.. نحن
نسجل كل كلمة نقولها.. سأعيد لك ما ذكرته لنا.
فتح دفتره، ثم راح يقرأ: (هذه الآية الكريمة تدل على
أن دخول العارفين في الأشياء كلها يكون بالله،
وخرجهم منها يكون بالله، وكأن الله يخاطبنا من خلالها
بقوله: قل أيها العارف: رب أدخلني في الأشياء حقوقاً
كانت أو حظوظاً مدخل صدق أي: إدخال صدق، بأن
يكون ذلك الإدخال بك، معتمداً فيه على حولك وقوتك
متبرئاً من حولي وقوتي ومن شهود نفسي، وأخرجني
منها مخرج صدق أي: إخراج صدق، بأن أكون مأذوناً
بإذن خاص، مصحوباً بالخشية وسر الإخلاص، ليكون
نظري إلى حولك وقوتك إذا أدخلتني في الأشياء وانقيادي
إليك إذا أخرجتني منها.. واجعل لي من لدنك أي: من
مستبطن أمورك بلا واسطة ولا سبب سلطاناً أي: برهاناً

قويًا، وليس ذلك إلا وارد قوى من حضرة قهار لا يصادمه شيء إلا دمغه فيحق الحق ويزهق الباطل، ويكون ذلك السلطان ينصرني على الغيبة عن الحس، وعن شهود سوى حتى نبعد عنهما برؤية مولاهما ولا ينصر على الوهم والحس وشهود الغيرية^(١).

قال الشيخ: نعم.. قلت لكم هذا.. وهو واضح، وليس فيه أي شيء منكر لا من الشريعة، ولا من العقل..
قال التلميذ: ولكنهم يذكرون أن هذا تحريف للقرآن الكريم.. وأنا لا يصح أن نخرج بالآية عما قال المفسرون.

قال الشيخ: صدقوا يا بني في ذلك.. ولا تجادلوهم فيه.. هم تحدثوا عن مرتبتهم الوجودية.. أو عيتهم لا تقبل غير ذلك..

أذكر أنني في شبابي الباكر أرسلت لشيخني رسالة أذكر له فيها ما يطرحه المعترضون عليه، فرد علي برسالة

(١) إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص: ٥١٧.

قال فيها: (اعلم - أيها الولد المحب - أن من العلوم القرآنية ما هو خاص بالخاصة، ولا يمكن للعامّة أن تفهمه أو تتعاطاه، وقد ورد في الأثر: (إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا أظهره أنكرته أهل الغرة بالله)^(١).. وقد ورد في وصية الإمام علي لتلميذه الصالح كميل: (يا كميل، إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها، فاحفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة؛ عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعا ع أتباع كل ناعق، مع كل ريح يميلون، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق، فاحذر أن تكون منهم يا كميل..)

وقال له شاكيًا: (أه لو وجدت لهذا العلم حملة لا أجد إلا لقتنا غير مأمون، يستعمل آلة الدين للدنيا، ويستظهر بنعم الله على عباده، وبحججه على أوليائه، أو منقادًا

(١) قال العراقي في تخريجه: (رواه أبو عبد الرحمن السلمي في الأربعين له في التصوف من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف) (انظر: أبو الفضل العراقي، المغني عن حمل الأسفار، تحقيق: أشرف عبد المقصود، مكتبة طبرية الرياض، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، (١/ ٢٣)).

لحملة الحق، ولا بصيرة له في أحناته، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، أو منهوكاً باللذة سلس القيادة للشهوة، أو مغرماً بالجمع والادخار، ليسا من رعاة الدين في شيء، أقربُ شبهاً بهما الأنعامُ السائمةُ كذلك يموت العلم بموت حامله مستتراً..)

العبرة:

بعد أن امتلأت بمشاعر عظيمة في مجلس شيخ الإشارة، وبعد أن سال من دموعي ما لم أستطع إيقافه.. وبعد تلك الحسرة التي شعرت بها على تقصيري في حق ربي.. رحمت لجهلي وغبائي أبحث عن شيخ العبرة الذي كانوا يتحدثون عنه كل حين.

فسألت عنه، فدلني بعضهم على قصر مهيب.. فتعجبت أن يكون لشيخ العبرة مثل تلك المدرسة.. بينما مدرسة شيخ الإشارة لا تعدو أن تكون كوخاً من الأكواخ، أو منزلاً بسيطاً لا يزيد عن البيوت التي تجاورها شيئاً.

وعندما دخلت المدرسة زاد عجبى من كثرة تلاميذها..
وكثرة المتاع المتوفر فيها..
كان التلاميذ في انتظار الشيخ على أحر من الجمر..
وكان بيد كل منهم دفتر وقلم..
دخل الشيخ، وكان ضخم الجثم، حسن البزة، طويل
القامة، عريض الهامة، يملأ السمع والبصر..
بدأ القارئ بإشارة من الشيخ يقرأ القرآن الكريم..
وكان العجب أن يقرأ سورة العصر..
بعد قراءتها أخذ الشيخ في تفسيرها، وكان جهوري
الصوت، فصيح اللسان، يحرص على أن يقيم القلقله
والغنة والمدود ونحوها.. ويحرص على ألا يقع في أي
لحن.. سأحكي لكم نموذجًا مما كان يقوله، ويمكنكم أن
تقيسوا عليه الباقي..

قال الشيخ: نبدأ باللغة.. (العَصْر) كما في القاموس:
الدهر.. والجمع أعصار وعصور وأعصر وعصر..
والعصر اليوم والليله والعشي إلى احمرار الشمس..
والغداة والحبس والرھط والعشيرة والمطر من

المعصرات والمنع والعطية، عصره يعصره وبالتحريك
الملجأ والمنجاة كالعصر بالضم^(١).

قال بعض التلاميذ: ماذا قال السلف الصالح في معناه؟

قال الشيخ: لقد ورد عن السلف فيه ثلاثة أقوال^(٢):

أحدها: أنه الدَّهر، قاله ابن عباس، وزيد بن أسلم،
والفراء، وابن قتيبة. وإنما أقسم بالدهر لأن فيه عبرة
للناظر من مرور الليل والنهار على تقدير لا ينخرم.

والثاني: أنه العشي، وهو ما بين زوال الشمس

وغروبها، قاله الحسن وقتادة.

والثالث: صلاة العصر، قاله مقاتل.

قال تلميذ آخر: هلا وضحت لنا كيف نقرؤها غضة

طريقة.

قال الشيخ: في ذلك وجوه: منها ما قرأ به سلام أبو

المنذر، حيث قرأ (والعصر) بكسر الصاد والراء.. وهذا

(١) إعراب القرآن وبيانه (١٠ / ٥٧١).

(٢) زاد المسير في علم التفسير (٤ / ٤٨٧).

إنما يكون في نقل الحركة عند الوقف كقولك مررت ببيكر
تعلو كسرة الراء إلى الكاف عند الوقف.. وكذلك يفعلون
في المرفوع ولا ينقلون في المنصوب إلا في ضرورة
شاعر، وقد قال سيبويه: الوقف على الاسم بستة أشياء:
بالإشمام والإشباع، وروم الحركة، ونقل الحركة،
والتشديد، والإسكان.. ونقول الإشمام ضم الشفتين بعد
الإسكان في المرفوع والمضموم للإشارة إلى الحركة من
صوت والغرض به الفرق الساكن والمسكن في الوقف،
والروم هو أن تأتي بالحركة مع إضعاف صوتها
والغرض به هو الغرض بالإشمام إلا أنه أتم في البيان من
الإشمام فإنه يدركه الأعمى والبصير والإشمام لا يدركه
إلا البصير.

قال تلميذ آخر: شكرًا لنا شيخنا.. فلنذهب إلى الكلمة

الثانية (الإنسان)

قال الشيخ: (الإنسان) لفظ يقع للذكر والأنثى من بني
آدم وربما أنثت العرب فقالوا إنسان وإنسانة، كما قال
الشعر:

إنسانة تسقيك من إنسانها... خمرًا حلالاً مقلتها عنبه
وال فيه لاستغراق الجنس فيشمل المؤمن والكافر
بدليل الاستثناء.

قال تلميذ آخر: وكلمة (خُسْرٍ).. ما تعني؟
قال الشيخ: الخسر والخسران سواء، قال في
المصباح: (خسر في تجارته خسارة بالفتح وخسرًا
وخسرانًا ويتعدى بالهمزة فيقال أخسرته فيها وخسر خسرًا
وخسرانًا أيضًا: هلك)

بقي الشيخ هكذا يشرح السورة كلمة كلمة.. ثم أعربها،
وأطال في وجوه إعرابها.. ثم تكلم عن البيان والمعاني
والبديع.. ثم انتهى من درسه، وطلب من تلاميذه أن
يسألوه عما لم يفهموه.

قال أحدهم: شكرًا لك شيخنا على هذا التفسير العظيم
الذي لم نقرأ مثله.. وأنا أريد أن أسألك سؤالاً حول شيخ
الإشارة..

غضب الشيخ، وقال: ما به.. ألا يزال ذلك الأمي
الملحد يتجرأ على تفسير القرآن.. ألم أكن قد نهيته عن

ذلك.. ألم تأت الشرطة بعد لتغلق عليه السرداب الذي ينشر فيه الباطنية وكل أنواع الضلال؟

قال التلميذ: بلى.. لم تأت الشرطة بعد.. وقد كنت في الصباح عنده.. وقد رأيتَه يفسر هذه السورة بخلاف ما فسرتها.. وقد ملأ تلاميذه رعباً.. بل صور لهم، وكأنهم هم الخاسرون.. لا الكفار والمبتدعة والزنادقة.

قال الشيخ، وهو يضحك: لقد صدق في هذا.. فمن تبعه لا شك في خسارته..

ضحكوا جميعاً، لكن أحد التلاميذ قال: ولكن السورة فيها هذا التهديد المخيف.

قال الشيخ: هي تهديد للمبتدعة المنحرفين الضالين.. أما أصحاب الفرقة الناجية، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.. لقد وردت الآثار الكثيرة عن سلفنا الصالح تضمن النجاة لكل من تمسك بما نتمسك به من السنة وهدى السلف الصالح..

ثم أخذ يروي لهم ما ورد عن البربهاري وابن بطنة وابن خزيمة وابن تيمية وغيرهم من الضمانات ما ملأهم

بشرًا وسعادة، وأكد لهم أنهم لا محالة داخلون الجنة، وأن من عداهم لا محالة داخلون النار.

بعد أن انتهى رفع تلميذ آخر يده، وقال: هل علمت يا شيخنا بأن شيخ الإشارة قد عاد لما حذرته منه، فذكر أنه يمكن للإنسان أن يسمع القرآن من الله مباشرة من غير حاجة لملك أو غيره.

قال الشيخ^(١): هذه جراءة لم يتح لأحد — فيما مضى — أن يعلن بمثلها في قوم من المسلمين فتروى عنه وتروج، إنها تؤدي بقائلها والمصدق به إلى الاستغناء عن رسالة محمد ﷺ إذا كان (المؤمن) يأخذ القرآن من الامام المبين.. أو يأخذ مباشرة من أرحم الراحمين فإنه ليس من أمة محمد؛ لأن أمة محمد أخذت القرآن منه ﷺ، أخذه الصحابة مباشرة وكتبوه ورووه، وبلغ إلى من لم يكن

(١) الكلام الوارد هنا هو للشيخ أحمد حماني في كتابه، صراع بين السنة والبدعة، (١/٢٧٢) في نقد الشيخ ابن علبوة الذي اعتبرناه شيخ الإشارة.. وقد أشرنا بقصر شيخ العبارة إلى المجلس الإسلامي الأعلى الذي كان يرأسه الشيخ حماني.

حاضراً نزوله ومن بعده برواية بلغت حد التواتر في كل كلمة منه وكل حرف، وهو ﷺ لم يأخذ القرآن مباشرة من اللوح المحفوظ، ولا تلقاه مباشرة من الله، وإنما تلقاه من لدن حكيم عليم بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، كما أنبأنا علام الغيوب، ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٢)..

إن هذه الدعوى خطيرة جداً لأنها تؤدي إلى أن الوحي لم ينقطع بختم الرسالة، فمن يقرأ اللوح المحفوظ، ومن يتلقى عن الله فهو يوحى إليه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الشورى: ٥١)، ونحن المسلمون نعتقد أن الوحي قد انتهى بختم الرسالة)

قال ذلك، ثم ختم الجلسة، وهو يقول: انتظروا... في هذا المساء سوف نقضي على هذه الفتنة من جذورها.

قبل آذان المغرب بقليل، شعرت بأشواق تجذبني إلى شيخ الإشارة، لأريح عن قلبي ما علق به من رين بسبب شيخ العبارة، فذهبت، لكنني فوجئت بها مغلقة بالشمع

الأحمر.. سألت المارة عن الشيخ، فأخبروني أنه اقتيد إلى السجن.. وأن شيخ العبارة انتصر أخيراً على شيخ الإشارة..

وفي ذلك المساء أيضاً سمعت أن شيخ العبارة رقي إلى مناصب مهمة في الدولة، بحيث صار هو الممثل الأعلى للإسلام، وهو المفتي الوحيد في الدولة، والمفسر الوحيد للقرآن.

العبرة.. والأسطورة

تشكل القصص جزءاً مهماً من القرآن الكريم قد يصل إلى النصف، وقد يتجاوزه.. وهنا تكمن الخطورة.. فالذي يتقن التعامل مع هذا النصف، يكون قد تعامل حقيقة مع القرآن الإلهي المقدس.. وإن أساء التعامل معه يكون قد ضيع نصف القرآن، أو تعامل مع قرآن آخر نسجه بهواه أو ثقافته أو بيئته أو طائفته ومذهبه.. وهو يقول حينذاك - شعر أو لم يشعر - بتحريف القرآن وتبديله وتغييره، ويكون من الذين بدلوا الكلم عن مواضعه، وتكون يده من الأيدي الآثمة التي لم تتطهر لتلمس الحقائق القرآنية.

لا تستعجلوا في الإنكار علي.. فهذا الكلام ليس من نسج الخيال، وليس نظرة موعلة في التشاؤم، بل هو الواقع السائد في تراثنا وتاريخنا.. وأنا لا أقوله لأحكم على أحد من الناس بأي حكم.. فالله هو الديان وهو الذي يحكم بين عباده.. ولكني أقوله

لأنه الواقع أولاً.. ونحن مطالبون بأن نكون صادقين في نظرتنا للواقع، وفي حكمنا عليه.. وأقوله ثانيًا؛ لأنه لا يمكن أن نصح واقعنا، ونحن نفخر بأنفسنا وتراثنا وأمجادنا، ولو كان على حساب تضييع نصف القرآن، أو تحريفه وتبديله.

سأقص عليكم قصة قد تبسط هذه الحقيقة التي أومن بها، وهي رمزية كسائر القصص، فمن فك الرمز وصل إلى الحقيقة، ومن انشغل بالرمز تاه عنها، مثلما نتيه تمامًا عن الرموز المودعة في القصص القرآني.

لقد قدر لي في ذلك اليوم أن أمر على شيخين ومدرستين مختلفتين تمامًا إلى درجة التناقض مع أن الكتاب الذي يحاولان فهمه واحد.

أما الشيخ الأول الذي مررت عليه بجنب تلاميذه في مدرسته المتواضعة، فهو شيخ العبرة.. كان المحل الذي يقيم فيه مع تلاميذه ضيقًا بسيطًا.. وكان عدد تلاميذه قليلًا جدًا.. ربما يمثلون تلك الطائفة المحدودة التي فهمت مراد الله من قصصه.. فاعتبرت الله مربيًا بالقصص، وهاديًا

بها، وداعياً عباده إلى سبيله من خلاله.

تلك الطائفة التي وعت قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: ١١١).

تلك الطائفة هم أولوا الألباب الذي يهتمون باللب، لا بالقشور، وبالأعماق لا بالسطحيات..

تلك الطائفة هي الوحيدة التي عرفت أن الله بذاته العلية عندما يقص علينا أحسن القصص: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (يوسف: ٣) ليس حكواتياً ولا مؤرخاً.. وإنما هو الله رب العالمين.. الذي يعلم نفوس عباده، ويعلم كيف يرببها.

أما الشيخ الثاني، فقد كانت مدرسته واسعة فسيحة، وكان عدد تلاميذه كثيراً، وكان الثراء والترف باد على الجميع: الشيخ وتلاميذه..

وهم يمثلون تلك الطائفة الكبيرة من الأمة التي انشغلت بالقصة عن العبرة.. وانشغلت بالتاريخ عن الواقع..

وانشغلت بهوى النفس عن مراد الرب..

ولذلك لم ترفعها القصص.. ولم تعرج بها.. بل لم تهذب بها نفوسها.. بل إن الشيطان تسرب إليها من خلالها ليبيثها وحيه، ويلقنها مراده.. ويتخذ من آيات الله وسيلة لذلك، كما صور الله تعالى ذلك بدقة في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلَقَى الشَّيْطَانَ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (الحج: ٥٢، ٥٣).

وقد كان للشيطان نصيب وافر في تفاسير القرآن، وخاصة في الجانب القصصي منها، وكان له دور في تحريف مسار القرآن الكريم بتلك التفاسير ليتحول من كتاب سنن وقوانين وحقائق وعبر إلى كتاب خرافة وأسطورة وشعوذة.

سأحكي لكم حديث شيخ العبرة مع تلاميذه.. وسأحكي لكم بعدها حديث شيخ الأسطورة مع تلاميذه، ولكم أن

تحددوا موقفكم الذي يجعلكم تعيشون القصص، أم تتسلون بها.

وقد كان النموذج الذي شهدته في كلا المدرستين واحد، وهو قصة نبي الله سليمان عليه السلام.. فهلم لنراه بين العبرة والأسطورة.. ونسأل أنفسنا بعد ذلك: أين هو سليمان الحقيقي الذي قص علينا القرآن قصته: هل هو سليمان العبرة، أم سليمان الأسطورة؟

العبرة:

جلست مع التلاميذ المتواضعين في المدرسة المتواضعة مع الشيخ المتواضع.. وبدأ الحديث..

طلب الشيخ من القارئ أن يقرأ ما ورد في القرآن الكريم حول سليمان عليه السلام.. فقرأ القارئ بصوته الجميل الهادئ من مواضع مختلفة تحكي جميعاً قصة سليمان عليه السلام.

بعد أن انتهى القارئ، التفت الشيخ إلى تلاميذه، وقال: أنتم تعلمون طريقتي في التعامل معكم.. فنحن جميعاً

تلاميذ القرآن الكريم.. وليس فينا أستاذ ولا تلميذ.. ولذلك سلوني ما بدا لكم، ودعوني أسألكم.. فبالحوار نستطيع أن نفهم الحقائق.. وبالحوار نستطيع أن نمارس التفكير الجماعي الذي دعا إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثِّيَ وَقُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ (سبأ: ٤٦).

وتذكروا جيداً أننا أمام كتاب ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢)، فكل كلمة فيه حقيقة عظيمة.. وكل آية فيه بحر من بحار الحكمة.. ولكم أن تسبحوا في هذا البحر.. ولكم أن تغترفوا منه.. ولا تحقروا ما يلهمكم الله أثناء تدبركم لكتابه، فالله ﴿هُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (سبأ: ٢٦).

ولا تحذروا أن تقولوا في القرآن ما لم يقله سلفكم أو خلفكم.. فالقرآن هو خطاب الله لكم.. وبقدر تقواكم تتالون من حكمته، وتفهمون مراد الله.. وترقى حياتكم ودرجتكم عند الله بذلك.. كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

رفع أحد التلاميذ يده بأدب، وقال^(١): يا شيخ.. في نفسي شيء من طلب سليمان عليه السلام من ربه سبحانه وتعالى أن يعطيه ملكاً لم يعطه أحداً من عباده، كما نص على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (ص: ٣٥).

قال الشيخ: قل، فلا حرج على المتعلم أن يعرض شبهته على معلمه، ألم تعلم أن الناس سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الوسوسة التي يجدها أحدهم، لأن يسقط عن الثريا أحب إليه أن يتكلم بها، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: (ذاك صريح الإيمان، إن الشيطان يأتي العبد فيما دون ذلك فإن عصم منه وقع فيما هنالك)^(٢).

قال التلميذ: لقد قلت في نفسي: لقد عهدنا الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - زاهدين في متاع الدنيا راغبين في الله مكتفين بالله، فكيف طلب سليمان عليه السلام هذا الطلب

(١) بعض العبر المذكورة هنا نقلتها بتصريف من كتابي (مفاتيح المدائن)

(٢) (رواه النسائي.

الغريب؟

قال الشيخ: أجبني يا بني.. كيف ترى سليمان عليه السلام في القرآن الكريم؟

قال التلميذ: لا أراه إلا خيراً منيباً، بل لقد أتى الله عليه بكونه منيباً رجاعاً إلى الله، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٣٠)، وقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ (ص: ٣٤).

قال الشيخ: فهل شغله تدبير ملكه العظيم الذي لا نظير

له عن الله؟

قال التلميذ: لا.. بل أراه يذكر الله كل حين، ويعرف الفضل لله كل حين، فعندما مر على النملة وسمع كلامها قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل: ١٩).

قال الشيخ: وهل ظهرت هذه الإنابة في علاقته مع

غيره؟

قال التلميذ: أجل، فقد كتب لملكة سبأ يقول لها: ﴿إِنَّهُ

مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ
وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿النمل: ٣١﴾.

وقال مخاطباً رعيته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ
الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾
(النمل: ١٦)، فقد أرجع الفضل إلى الله في تعليمه منطق
الطير، أو في إتيانه من كل شيء.

قال الشيخ: فإن سليمان عليه السلام طلب ذلك الملك، وبتلك
الصورة التي لا ينازعه فيها أحد ليكون حجة على من
شغله ملكه عن الله، وكان سليمان عليه السلام يقول لربه: (يا
رب هب لي من الملك ما تشاء.. بل هب لي ملكاً لا
ينبغي لأحد من بعدي أن يحصل عليه.. فإن هذا الملك
مهما كان عظيماً.. وذلك الفضل مهما كان وفيراً لن
يحجباني عنك، ولن يبعدا قلبي عن الرغبة فيك.. فأني لا
أرى الأشياء مهما كثرت إلا منك.. ولا أرى نفسي إلا
بك.. فكيف أحجب بهدايك الواصلة إلي.. أم كيف أشغل
بفضلك عنك؟)

قال التلميذ: فاستجاب الله لبيلوه؟

قال الشيخ: لا، بل استجاب له، ليلوكم.
قلت: كيف؟

قال الشيخ: لقد علم الله صدقه وصدق يقينه، فجعله حجة على كل من انشغل بفضل الله عن الله، أو انشغل بالرغبة في الأشياء عن الرغبة في مشيئ الأشياء.. وقد جعله الله تعالى بالإضافة إلى ذلك مقوماً لمن أساءوا فهم الزهد، فتصوروا الأرزاق حجباً عن الله، والفضل الإلهي جنوداً لله تبعد عن الله.

قال التلميذ: نعم، هذا صحيح، ولعله لأجل هذا ذكر الله تعالى ما أظهر سليمان عليه السلام لمملكة سبأ من مظاهر الملك الذي أعطاه الله له، فلم يكن غرضه الفخر عليها، وإنما كان غرضه تعريفها بالله؛ لأنها انشغلت بالعرش العظيم^(١) الذي كان لها عن الله، فلذلك كان أول ما لاقاها به سليمان عليه السلام هو عرشها الذي حجبها عن الله، وعن التسليم له،

(١) وقد ذكر القرآن الكريم ذلك، فقال على لسان الهدد: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (النمل: ٢٣)

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قَيْلٌ أَهْكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ (النمل: ٤٢).

فلما قالت ذلك، وفي غمرة انبهارها بما رأت أخبرها سليمان عليه السلام بأنه مع هذا الملك كان مسلماً لله، فلم يحجب به عن الله، فقال تعالى على لسانه^(١): ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

فلما رأى سليمان عليه السلام حاجتها إلى المزيد من الأدلة، أحضرها إلى الصرح الممرد من القوارير، وقد كان من الجمال بحيث لا يساوي عرشها الذي شغلها عن الله شيئاً بجانبه، وحينذاك لم تملك إلا أن تسلم لله، قال تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي

(١) هذا هو الصحيح، وهو ما قاله مجاهد وسعيد بن جبير، وقد اختاره ابن جرير وابن كثير، لا من قول ملكة سبأ، بدليل أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح، كما قال: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٤٤)

ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿النمل: ٤٤﴾.

قال الشيخ: بل في القرآن الكريم ما يدل على هذا المعنى، فقد أوتيت ملكة سبأ من الذكاء ما استطاعت أن تميز به الملوك من المؤمنين، فقد أرسلت بهدية قيمة لسليمان عليه السلام لتختبر موقفه من المال، قال تعالى على لسانها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (النمل: ٣٥).

لكن سليمان عليه السلام نظر إلى ما أعطاه الله من الإيمان والفضل فوجده أعظم بكثير من أن ينحجب بهديتهم، فقال: ﴿أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ (النمل: ٣٦).

قال التلميذ: لقد فهمت يا معلم سر طلب سليمان عليه السلام، ولكن لماذا ورد في القرآن الكريم ذكر ملكة سبأ بالذات، وذكر هذا الموقف من سليمان عليه السلام معها؟.

قال الشيخ: لقد أراد الله من هذا النموذج أن يبين لنا كيفية دعوة من بهرتهم الدنيا وشغلتهم عن الله.

قال التلميذ: لم أفهم.

قال الشيخ: إن ملكة سبأ بعرشها، وقومها بتعظيمهم لها انشغلوا عن الله، فجعل الله فيما أعطى المؤمنين من أسباب الفضل التي لم تشغلهم عن الله ما يرغبهم في الإيمان بالله.

قال التلميذ: ولكن القرآن الكريم ذكر إسلام ملكة سبأ وحدها.

قال الشيخ: والقرآن الكريم ذكر التبعية المطلقة لقومها لها، كما قال تعالى على لسان مستشاريها: ﴿نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (النمل: ٣٣)، وهو ما يدل على أنهم اتبعوها على الإيمان.

قال التلميذ: وهل رجعت إليهم حتى يتبعوها؟

قال الشيخ: ومن قال: إنها لم ترجع إليهم.. إن القرآن الكريم أخبر أن غاية سليمان عليه السلام من إرساله لها هو حثها على الإسلام لا سلب ملكها منها، كما قال تعالى على لسانه: ﴿الَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾

(النمل: ٣١).

قال التلميذ: ولكن المفسرين أخبروا أنه تزوجها.
قال الشيخ: وهل حضروا حفل زواجها!؟.. ما أولعكم
بما لا يفيدكم.

قال التلميذ: ولكنهم رووا في ذلك أخبارًا، فقد رووا أن
الجن أرادوا أن يبشعوا منظرها عند سليمان عليه السلام وأن
تبدي عن ساقها ليرى ما عليها من الشعر فينفره ذلك
منها، وخشوا أن يتزوجها لأن أمها من الجن فتسلط
عليهم معه وذكر بعضهم أن حافرها كان كحافر الدابة.

ثم إن سليمان عليه السلام لما أراد إزالته — حين عزم على
تزوجها — سأل الإنس عن زواله فذكروا له الموسيقى،
فامتعت من ذلك، فسأل الجن فصنعوا له النورة
ووضعوا له الحمام، فكان أول من دخل الحمام فلما وجد
مسه قال: (أوه من عذاب أوه أوه قبل أن لا ينفع أوه).

وقد ذكر الثعلبي وغيره أن سليمان لما تزوجها أقرها
على مملكة اليمن وردّها إليها، وكان يزورها في كل شهر
مرة، فيقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على البساط، وأمر

الجان فبنوا له ثلاثة قصور باليمن: غمدان وسالحين
وبيتون.

قال الشيخ: طهروا كتب تفسيركم من هذا الرفث،
فالحقائق الجميلة الطاهرة للقرآن الكريم لا ينجسها إلا هذا
اللغو الذي تملؤون به أسفاركم، وتضيعون به أوقاتكم،
وتتشغلون به عن ربكم.

قال التلميذ: ألا يمكن، يا معلم، أن نستفيد من موقف
سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ فنجعله أسلوبًا من أساليب
الدعوة لله في عصرنا؟

قال الشيخ: بل لم يذكره القرآن الكريم إلا لتستخدموه،
فلو أن رجالاً من هذه الأمة رفعوا همهم وسخروا السنن
التي وضعها الله لهم، وامتطوا صهوة الزمان، فأخرجوا
الأمة من غياهب التخلف والمعاناة، وأوصلوها إلى التقدم
والتطور الذي لا يحجب عن الله لتحقق بذلك نصر الله
الذي يدخل الناس بسببه في دين الله أفواجًا.

قال التلميذ: ولكن النصر — كما أتصوره — نصر
جيوش.

قال الشيخ: ذلك نصر المصارعين، أما المسالمون فهم الذين ينتصرون بأقلامهم ودفاترهم، وفؤوسهم ومعاولهم. رفع تلميذ آخر يده، وقال: لدي سؤال لا يزال يثار في ذهني.

قال الشيخ: قل ما بدا لك.. فمتى حجرت عليكم السؤال؟

قال التلميذ: أنا أتعجب من طلب سليمان عليه السلام من ملئه أن يأتيه بعرشها.. فقد كان له من القوى ما ليس لهم.. فلم طلب منهم ذلك، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٣٨).

قال الشيخ: فما الذي أجابه به العفريت؟

قال التلميذ: قال له ما نص عليه القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ (النمل: ٣٩).

قال الشيخ: فهل كان ما طرحه العفريت مقبولاً من جهة سرعة إحضاره؟

قال التلميذ: أجل، فلا أظن أن هناك وسيلة معاصرة

تستطيع إحضار العرش بهذه السرعة.

قال الشيخ: وهل رضي سليمان عليه السلام بما طرحه العفريت؟

قال التلميذ: لا، بدليل أنه لم يكتف به، بل سمع للذي عنده علم من الكتاب، فقد ضمن له سرعة أكبر.

قال الشيخ: إذن سليمان عليه السلام لم يرض بما اقترح العفريت، بل ظل يتطلع إلى سرعة أعظم، إلى أن حصل عليها.

قال التلميذ: أجل هذا واضح من القصة.

قال الشيخ: يمكنك أن تفهم من هذا بحسب وعائك.. وبحسب القبلة التي يتوجه إليها عقلك وقلبك.
قال التلميذ: لم أفهم.

قال الشيخ: القرآن الكريم يخاطب كل إنسان بحسب الوجهة التي توجه لها.. فإن كان عابداً فهم من الآية السباق الجاري بين العابدين، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين: ٢٦).. وإن كان عالماً فهم منها السباق القائم بين العلماء.. وهكذا تشمل الآية كل

أنواع السباق حتى السباق القائم بين الدول.. فأنتم تعلمون
أن هناك دولاً متطورة تصنف ضمن العالم الأول.. ودولاً
متخلفة عن ركب غيرها من الأمم.. ومن العار على
الأمّة التي أوتيت الكتاب أن تكون آخر الأمم وأكثرها
تخلفاً.

قال تلميذ آخر: فحدثنا يا شيخنا عن سر قوله تعالى:
﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ (سبأ):
(١٢).

قال الشيخ: فما فهمت منها.. وما الذي استفدته من
المفسرين منها؟

قال التلميذ: يخبر الله تعالى عن النعم التي وهبها
سليمان عليه السلام، ومنها تسخير الريح له تحمل بساطه
غدوها شهر ورواحها شهر، كما قال الحسن البصري:
(كان يغدو على بساطه من دمشق، فينزل بإصطخر
يتغدى بها، ويذهب راحاً من إصطخر فيبيت بكابل، وبين
دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرّع، وبين إصطخر
وكابل شهر كامل للمسرّع)

قال الشيخ: فمن أخبر الحسن بذلك؟

قال التلميذ: ربما يكون سمعها من الصحابة الذين

سمعوها من رسول الله ﷺ..

قال الشيخ: فلم لم تقل: إن رسول الله ﷺ هو الذي

ذكر ذلك؟

قال التلميذ: لأنه لا دليل على ذلك، فقد يكون سمعها

من اليهود، أو من غيرهم.

قال الشيخ: فما قيمة هذا العلم الذي لا تعرف مصدره،

ولا صدقه.. وحتى لو عرفته فما الذي يفيدك أين يتغدى

وأين يتعشى.. وهل ترى سليمان عليه السلام كان من

المترفين الذين يستغلون نعم الله عليهم لتغذية مآرب

الترف فيهم.. ألا ترى فيما ذكرته لي إهانة لنبي الله

الأواب التواب الزاهد؟

قال التلميذ: من هذه الجهة صدقت.. ولكن لم ذكر الله

ذلك؟

قال الشيخ: الآية تشير الى أن الطريق مفتوح أمام

البشر لقطع مثل هذه المسافة في الهواء..

قال التلميذ: كأنك تقول: إن هذه الآية تحث على البحث عن القدرات المخزنة في الهواء لاستغلالها في قطع المسافات.

قال الشيخ: لست أنا الذي أقول هذا، بل إن الله تعالى يقول في معنى هذه الآية الكريمة: (إن عبداً من عبادي ترك هوى نفسه، فحملته فوق متون الهواء، وأنت أيها الانسان! إن نبذت كسل النفس وتركته، واستفدت جيداً من قوانين سنتي الجارية في الكون، يمكنك أيضاً أن تمتطي صهوة الهواء)^(١).

قال تلميذ آخر: أخبرنا سيدنا عن سر سمع سليمان عليه السلام للنملة عندما قالت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: ١٨)، فتبسم ضاحكاً من قولها.. وعن سر ذكر القرآن الكريم لذلك؟

قال الشيخ: فما ترى أنت؟.

(١) كلام لبديع الزمان النورسي.

قال التلميذ: تلك معجزة حصلت له.

قال الشيخ: ألم تعلم بأن معجزات الله لا تخرق سنن الله، فسنن الله لا يعترىها التبديل والتحريف؟! .
قال التلميذ: أجل لقد علمتنا علم ذلك، ولكن كيف استطاع سليمان عليه السلام أن يسمع النمل، وكيف استطاع أن يعلم لغتها!؟.

قال الشيخ: من صدق مع الله لم يحتقر أي شيء.. ومن لم يحتقر أي شيء استفاد من كل شيء.. فلاحتمار هو الحجاب الذي يحول بيننا وبين فهم الأشياء أو الاستفادة منها.. ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٦).

ولهذا ضرب الله لنا المثل بالذباب.. كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ

الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿
(الحج: ٧٣).

فالعارف بالله يستفيد من الذباب ما لا يستفيدة الغافل
من الكون جميعاً..

بقي التلاميذ والشيخ يتناولون كل جزئية وردت في
قصة سليمان عليه السلام بالبحث والتحليل والنظر مدة من
الزمن.. وقد شعرت حينها بأن تلك السورة تتسع في
عيني لتشمل الحياة جميعاً بمختلف جوانبها..

وشعرت وكأن سليمان عليه السلام عاد من جديد بصورته
الحقيقية.. صورة الأواب التواب الشاكر.. جاء ليلقننا من
خلال الكلمات القرآنية المقدسة كيف نعيش حياتنا، وكيف
ننقمص شخصه الكريم.. ليتحقق بذلك فينا قوله تعالى:
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ افْتَدَاهُ﴾ (الأنعام: ٩٠).

الأسطورة:

سرت بتلك المشاعر الجميلة، وبصحبة روحية مع
سليمان عليه السلام إلى المدرسة الثانوية، وأنا أقول في

نفسى: ليس على المرء أن يدرس من مدرسة واحدة..
فكلما تتوعت المدارس وتعددت كلما نضج المرء واتسع
أفقُه..

كنت أقول هذا من دون أن أدرك أن تلك المدرسة
سوف تقوم بتخريب خطير لتلك الصورة الجميلة التي
رسمتها في نفسى مدرسة العبرة المتملذة على القرآن
الكريم..

لم أكن حينها أعى سر قوله ﷺ لعمر عندما أراه
صحيفة من التوراة، محذراً له من أن يخلط المنابع
القرآنية الجميلة بتلك التحريفات الخطيرة التي تتسخ جمال
المعاني القرآنية المقدسة بقذارة التحريفات البشرية
المدنسة..

لقد قال له ﷺ حينها: (أمتهوكون فيها يا ابن
الخطاب؟ والذي نفسى بيده لقد جئتم بها ببيضاء نقيّة، لا
تسألوهم عن شيء فيخبرونكم بحق فتكذبوا به أو بباطل
فتصدقوا به، والذي نفسى بيده لو أن موسى صلى الله

عليه وسلم حياً ما وسعه إلا أن يتبعني^(١).

لكن للأسف قومنا لم ينظروا لغضب رسول الله ﷺ.. ولم ينظروا إلى قوله الواضح الذي لا يحتمل أي تأويل أو نسخ أو استدراك.. بل راحوا ينشرون أن رسول الله ﷺ أذن في الحديث عن بني إسرائيل بلا حرج.. وأصبح ذلك هو الأصل.. ونسخ الحديث السابق، ونسخ معه غضب رسول الله ﷺ؛ لأن هؤلاء يعتقدون أن غضب رسول الله ﷺ غير معصوم.. وأنه يمكن أن يغضب لغير شيء كما يغضب سائر البشر.. ولم يعلموا أبداً أن غضب رسول الله هو غضب الله نفسه.. فرسول الله لا يغضب عن هوى كما لا ينطق عن هوى.

دعكم من أحاديثي فهي زفرة من زفرات غضبي على ذهابي إلى تلك المدرسة، وسماعي لمشايخها.. فقد بقيت آثار كلماتهم في نفسي زمناً طويلاً.. ولم أستطع قلع تلك الصورة الأسطورية القبيحة التي صوروها لنبي الله

(١) رواه أحمد.

سليمان عليه السلام إلا بعد جهد جهيد، والتجاء إلى الله أن يظهر قلبي من كل تحريف شيطاني لكتابه ولصوره نبيه..

سأحكي لكم.. واعذروني.. واحذروا أن يرتمم ما أنقله من صور إلى نفوسكم.. فإن خفتم عليها.. فاتركوا القراءة، ولا تكملوا باقي القصة.. فدينكم أهم من كل قصة.

عندما دخلت المدرسة الكبيرة ذات التلاميذ الكثيرين والكتب الكثيرة المتزاحمة أحسست في البداية ببعض الراحة التي نحس بها عندما نرى مكاناً جميلاً متسعاً.. ومنيت نفسي بأن أنال علماً كثيراً جديداً.

ودخل في أمنيتي شيء جديد، وهو الإجازة والشهادة.. فقد علق على باب المدرسة بيان كبير عليه أختام كثيرة.. تبشر المداومين على الحضور بنيل الإجازات والشهادات العليا التي تتيح لهم تبوء المناصب الرفيعة في تلك المدرسة وغيرها.

وهذا ما فسر لي بعد ذلك سر كثرة التلاميذ.. وسر

حرصهم على الحضور.

جلست مجلساً من المجالس.. وكانت المفاجأة أن
الدرس كان عن سليمان عليه السلام..
اعذروني أن أنقل لكم ما يقولون.. فبعض الناس لا
يصدق بشيء إلا إذا رأيناه بعينه.. ولعل في قوله تعالى:
﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ
اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (النساء: ١٤٨) ما يكون لنا عذراً في
ذكر ذلك.. وهو من باب تغيير المنكر لا من باب
إشاعته..

قال الشيخ لتلاميذه: سنحاول اليوم أن نرسم صورة
علمية دقيقة لحياة سليمان الشخصية والاجتماعية
والسياسية من خلال ما قصه القرآن الكريم علينا..
استبشرت خيراً لكلامه هذا، وحمدت الله على نعمة
حضورى للمدرسة..

بدأ الشيخ درسه بسؤال تلاميذه قائلاً: أنتم تعلمون
طريقتي.. فأسألوني عن أي آية تتعلق بسليمان عليه
السلام، وسأنيكم بخبرها.. فالحمد لله وفقني الله بفضلته

فقرأت، بل حفظت كل ما ترون من كتب التفسير ابتداء من الطبري وانتهاء بمن تعلمون من المفسرين المعاصرين، ولي فوق ذلك عشرين مجلدًا في تفسير القرآن الكريم.. لم أترك فيه قولاً قيل في أي آية إلا ذكرته.

استأذن تلميذ من تلاميذه، فأذن له، فقال: أجل يا شيخنا.. والحمد لله قد استفدنا منك كثيرًا.. ونحن لا نتلمذ عليك فقط.. بل نتلمذ على تفسيرك أيضًا.. وانطلاقاً منه أريد أن أسألك عن تلك القصص الكثيرة التي ذكرتها.. فقد حصل لنفسي منها شيء.

قال الشيخ: سل ما بدا لك.. فلا حرج عليك في ذلك.
قال التلميذ: لقد رأيت أن الكثير منها من رواية كعب الأحبار ووهب بن منبه وغيرهما من اليهود أو من تلاميذ اليهود.. ألا ترى أن في ذلك خلطاً بين المعاني القرآنية والمعاني اليهودية الدخيلة؟

قال الشيخ، وهو يحاول كظم غيظه: لو حضرت الحصص السابقة لعلمت قيمة هؤلاء المفسرين.. لولاهم

لكانت القصص القرآنية غامضة مبهمة لا نستطيع أن نفهم دقائقها وتفصيلها..

تصور لو لم يحك لنا كعب ووهب قصة بقرة بني إسرائيل هل كنا سنفهمها.. إنها تصبح مثل قصة بلا أول ولا آخر..

قال ذلك، ثم توجه لتلاميذه قائلاً: بالمناسبة.. من منكم يذكر قصة بقرة بني إسرائيل.. فقد قصصنا لكم مفصلة وموجزة..

قال تلميذ من التلاميذ: أنا أحفظ الموجزة منها على ظهر قلب.

قال الشيخ: فاسردها لنا حتى يعلم زميلك قيمة العلم.. وقيمة المعلومات التي بثها لنا أولئك الذين قيضهم الله لتفسير كتابه..

أخذ التلميذ يقرأ من ذاكرته، وكأنه يردد سورة من القرآن الكريم قصة عجيبة لبقرة بني إسرائيل ممثلة بالأحداث والتفاصيل التي لم يتطرق القرآن الكريم إليها. بعد أن انتهى قال الشيخ: بورك فيك يا بني.. أظن أنك

في المستقبل القريب سيكون لك مجلس مثل مجلسي في هذه المدرسة.

قال تلميذ آخر: ولكن يا شيخنا من أين لنا أن هذه القصة صادقة؟

قال الشيخ: أول دليل على صدقها هو ذلك الثناء العظيم الذي أتت به الأمة على رواتها.. فكعب الأخبار ووهب بن منبه من المشهود لهم بالعلم..

قال التلميذ: ولكني رأيت شيخاً كبيراً مثل الشيخ محمد رشيد رضا يتهم هؤلاء بأنهم دسوا في الدين الخرافة والأسطورة، وقد قال في ذلك: (إن كعب الأخبار كان من زنادقة اليهود الذين أظهروا الإسلام والعبادة لتقبل أقوالهم في الدين، وقد راجت دسائسه وانخدع بها بعض الصحابة فرووا عنه وتناقلوا مروياته بدون إسناد إليه حتى ظن بعض التابعين ومن بعدهم أنها مما سمعوه من النبي ﷺ^(١)).

(١) مجلة المنار (٢٧ / ٥٤١)

قال آخر: أجل.. وقد قرأت له قوله: (إن شر رواة هذه الإسرائيليات أو أشدهم تليبيساً وخداعاً للمسلمين وهب بن منبه وكعب الأحبار، فلا تجد خرافة دخلت في كتب التفسير والتاريخ الإسلامي في أمور الخلق والتكوين والأنبياء وأقوالهم والفتن والساعة والآخرة إلا منهما مضرب المثل)^(١).

غضب الشيخ، وقال: ويله.. ما هذا الهراء الذي ينطق به.. أهو خير من شيخ الإسلام.. وغيرهم من أعلام السلف الذين اعتبروا كعب الأحبار خصوصاً من أئمة الدين، وبحراً من بحور العلم.. بل إنهم اعتبروا من يتهم كعباً كمن يتهم الصحابة أنفسهم.. والشواهد الكثيرة تشهد لكعب الأحبار بصدق إسلامه وقوة إيمانه، ومن أبرز هذه الشواهد شهادة كثير من الصحابة له بذلك^(٢).

فإذا تتبعنا حياة كعب في الإسلام، ورجعنا إلى مقالات

(١) مجلة المنار (٢٧ / ٧٨٣)

(٢) نقلنا هذا، وبتصرف من موقع معتمد لدى التيارات السلفية، وهو موقع بيان الإسلام.

بعض أعلام الصحابة فيه، وأحصينا من تحمل منهم عنه وروى له، ومن أخرج له من شيوخ الحديث في مصنفاتهم.. لو فعلنا ذلك لوجدنا ما يدحض ويبطل هذه الفرية، ويشهد له بقوة دينه وصدق يقينه، وأنه قد طوى قلبه على الإسلام المحض والدين الخالص، ولغزارة علمه وكثرة معارفه لهج بعض أعلام الصحابة بالثناء عليه، فقال عنه أبو الدرداء: (إن عند ابن الحميرية لعلمًا كثيرًا)^(١).

أما خال المؤمنين معاوية، فقد وضعه مع كبار الصحابة، وأثنى عليه من بينهم، فقال: (ألا إن أبا الدرداء أحد الحكماء، ألا إن كعب الأخبار أحد العلماء، إن كان عنده لعلم كالبحار، وإن كنا فيه لمفرطين)^(٢).. انظر كيف اعتبر نفسه مفرطًا في التلقي عنه..

وهكذا نجد جماهير المحدثين على توثيق كعب؛ وأنسى

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد، (٤٤٩/٩)

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، (٥/٦٥٠)..

يكون ذلك وقد جلس الكثير من الصحابة بين يديه، ورووا عنه كما رووا عن رسول الله ﷺ سواء بسواء.. وهذا سر ما اختلط من رواياتهم عنه برواياتهم عن رسول الله ﷺ.. لقد حدث عنه من أعلام الصحابة كأبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، ولم يكن هؤلاء ولا غيرهم ممن رووا عنه سذجًا ولا مخدوعين فيه، وإنما أيقنوا أنه صدوق فيما يروي، فرووا عنه؛ لذلك قال عنه ابن حجر في التقریب: (ثقة مخضرم)^(١)، وقد روى له مسلم في صحيحه، وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم، وهو دليل على أن كعبًا كان ثقة غير متهم عند هؤلاء جميعًا^(٢).

استأذن تلميذ آخر، فقال له الشيخ: مجلسنا اليوم عن سليمان العلي^(٣).. ولا أريد أسئلة أخرى خارج الموضوع.. قال التلميذ: عنه كنت سأسألك ..

(١) تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، ص ٨١٢..

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد، (٩ / ٤٤٩).

قال الشيخ: ما دمت تريد أن تسأل عنه، فسل ما بدا لك.

قال التلميذ: ما معنى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ (ص: ٣٤) .. فقد اخترنا بعض المشايخ البارحة فيها، فبهت، ولم يجد جوابًا.

قال الشيخ، وهو يبتسم: على الخير سقطت .. سأنبئك من نبئها ما يروي عليك ..

هذه الآية الكريمة تذكر الفتنة العظيمة التي وقعت لسليمان عليه السلام .. وقد ذهب أكثر المفسرين^(١) إلى أن الجسد الذي ألقى على كرسي سليمان هو صخر الجنى. وقد اختلف المفسرون في اسمه، فالسدي ذكر أن اسمه حقيق، وعن بعضهم: ان اسمه كان آصف، والمعروف هو الأول، وقد روي عن ابن عباس.

(١) ما نذكره هنا من تفسير الآية هو من تفسير السمعاني (٤ / ٤٤١)، فما بعدها.

وأما قصته: فقد روي أن صخرًا كان شيطانًا ماردًا لا يقوى عليه أحد، فابتلى الله تعالى سليمان به، وسلبه ملكه، وقعد هذا الشيطان على كرسيه يقضي بين الناس، وكان سبب ذلك أن ملك سليمان كان في خاتمه.

وقد قال وهب بن منبه: وكان ذلك الخاتم مما ألبسه الله تعالى آدم عليه السلام في الجنة، وكان يضيء كضوء الشمس، فلما أكل آدم من الشجرة، وعصى الله تعالى سلب الخاتم، ثم إن الله تعالى أنزله على سليمان، وعقد به ملكه.. قال أحد التلاميذ: هلاً وصفت لنا سيدنا صفة ذلك الخاتم، فقد شوقتنا إليه.

قال الشيخ: لقد قمت بتحقيق معمق في ذلك.. وقد وصلت إلى أنه خاتم مربع له أربعة أركان، في ركن منه مكتوب: أنا الله لم أزل، وفي الركن الثاني مكتوب: أنا الله الحي القيوم، وفي الركن الثالث مكتوب: أنا العزيز لا عزيز غيري، وفي الركن الرابع مكتوب: محمد رسول الله.. وذكر بعضهم أن المكتوب عليه كان آية الكرسي. قال التلميذ: فأكمل لنا القصة..

قال الشيخ: أين وصلت؟
قال التلميذ: لقد ذكرت لنا أن سر ملك سليمان كان في
خاتمه..

قال الشيخ: أجل.. تذكرت.. كان سليمان عليه السلام إذا
دخل مغتسله سلم الخاتم إلى جارية له، وقد كان له المئات
من الجواري..

وقد دخل مرة وسلم الخاتم إلى الجارية، فجاء صخر
في صورة سليمان، فأخذ الخاتم من الجارية.. أنتم تعلمون
أن الجن يتشكل في الصور المختلفة.. وقد يكون من
الجالسين بيننا الآن جني في صورة تلميذ من التلاميذ..

اقشعر جسدي لما قال، وصرت أنظر إلى التلاميذ
الملتفتين حوله، فأراهم بصور عجيبة مرعبة.. لكني
تماسكت، ورحت أستمع إلى القصة.

قال الشيخ: .. وخرج سليمان يطلب الخاتم، فلم يجده،
فعلم أن الله تعالى سلبه ملكه.. فذهب يسيح في الأرض،
ولم يعرفه أحد بصورته، وكان يستطعم الناس، ويقول: أنا
سليمان بن داود، فيكذبونه ويؤذونه ويزعمون أنه مجنون.

لقد ورد في مصادرنا الموثوقة أنه استطعم مرة من قوم وزعم أنه سليمان بن داود، فقام رجل وشج رأسه بعضا في يده، ثم إنهم أعطوه كسرة يابسة، فحمل الكسرة إلى شط نهر ليبلها بالماء، وكان جائعًا لم يصب طعامًا منذ أيام، فذهب الماء بالكسرة.

وروي إنه كان على شط البحر، فجاءت موجة وحملت الكسرة، فدخل هو البحر في إثرها حتى خاف الغرق فرجع ورجعت الكسرة ثم إنه طمع فيها وذهب ليأخذها، فذهبت الكسرة، هكذا مرات..

رأيت تلاميذه يبكون بحرارة، ولم أدر هل كانوا يبكون على الكسرة التي فرت منه، أم على سليمان عليه السلام الذي وعده الله بأن يهبه الله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده. قال بعض التلاميذ، ودموعه تتحدر: فهل ظفر بالخاتم.. وكيف عاد ملكه إليه؟

قال الشيخ: في يوم من الأيام.. وبعد محن كثيرة مر بها.. مر على قوم صيادين؛ فسألهم شيئًا ليأكله فأعطوه سمكة ميتة، فشق جوفها، فوجد خاتمة فيها، فجعله في

إصبعه، وعاد إليه ملكه، وعكفت الطير في الوقت على رأسه، واجتمع إليه الإنس والجن والشياطين.

رأيت الفرح بادياً على وجوه التلاميذ، وصار يهنئ بعضهم بعضاً من الفرح..

قال بعض التلاميذ: فما كان مصير صخر الجني، وماذا فعل بخاتم سليمان؟

قال الشيخ: لقد روي في مصادرنا الموثوقة أنه لما أخذ الجني الخاتم تحولت صورته إلى صورة سليمان.. ثم ذهب وقعد على كرسيه، وجعل ينفذ ما كان ينفذه سليمان إلا أنه اختلف في قيامه بعلاقة مع نساء سليمان الكثيرات واللاتي يقربن من ألف امرأة.. فذهب البعض إلى أنه لم يكن يستطيع ذلك.. وذهب آخرون إلى أنه كان يصيبن في فترة العادة الشهرية.. وذهب آخرون إلى أنه كان يصيبن مطلقاً^(١).

قال تلميذ آخر: ألم يفتن بنو إسرائيل إلى التفريق بين

(١) تفسير السمعاني (٤/ ٤٤٢)

صخر وسليمان؟

قال الشيخ: لقد روي في مصادرنا الموثوقة أن بني إسرائيل أنكروا أمر صخر الجني؛ لأنه كان يقضي بغير الحق؛ فذهبوا إلى نساء سليمان، وقالوا لهن: تتكرون من أمر سليمان شيئاً، فقلن: نعم؛ فحينئذ وقع في قلبهم أن سليمان قد ابتلي، وأن الله تعالى سلبه ملكه، وأن الشخص الذي على الكرسي شيطان.

فأخذ بنو إسرائيل التوراة وجاءوا إلى حول الكرسي وجعل يقرؤونها؛ فطار صخر إلى أشرف القصر، ثم طار من شرف القصر ومر فوق في البحر.

قال التلميذ: فما فعل سليمان بصخر عندما عاد إلى

ملكه؟

قال الشيخ: روي في مصادرنا الموثوقة أنه لما رد الله تعالى على سليمان ملكه، أمر الشياطين بطلب صخر، فوجدوه وحملوه إلى سليمان؛ فصفده بالحديد، وجعله في صندوق، وألقاه في البحر، فهو في البحر إلى يوم القيامة. وروي أن الشيطان هرب حتى لحق بجزيرة من

جزائر البحر، فأرسل سليمان عليه السلام في طلبه، وكان شيطاناً مريداً يطلبونه ولا يقدرّون عليه حتى وجدوه يوماً نائمًا، فجاؤوا فبنوا عليه بنياناً من رصاص، فاستيقظ، فوثب، فجعل لا يثب في مكان من البيت إلا أن دار معه الرصاص، فأخذوه وأوثقوه: وجاءوا به إلى سليمان عليه السلام، فأمر به، فنقب له في رخام، ثم أدخل في جوفه، ثم سد بالنحاس، ثم أمر به، فطرح في البحر.

قال تلميذ آخر: ما هو السبب في رأيك - سيدنا -

الذي بسببه وقع سليمان عليه السلام في هذه الفتنة؟

قال الشيخ: لقد روي في مصادرنا الموثوقة في ذلك أقوال كثيرة.. منها أن الله تعالى كان أمره ألا يتزوج امرأة من غير بني إسرائيل، فخالف وتزوج امرأة من غيرهم، فابتلاه الله تعالى.. ومنها أنه كانت عنده امرأة، وكان يحبها حباً شديداً، فخاصم أخوها إلى سليمان في شيء مع إنسان، فطلبت المرأة من سليمان أن يقضي لأخيها؛ فقال لها: نعم، ولم يفعل ذلك، فابتلاه الله تعالى.. ومنها أنه احتجب من الناس ثلاثة أيام، ولم يأذن لأحد،

فأوحى الله تعالى إليه: يا سليمان، إنني إنما بعثتك وأعطيتك هذا الملك؛ لتتصف المظلومين، وتكون عوناً للضعفاء على الأقوياء، ولم أعطك لتحتجب عن الناس.. ومنها أنه قال مرة: والله لأطوفن الليلة على نسائي، وكان له ثلثمائة امرأة، وسبعمائة سرية، ولتحملن كل امرأة منهن، وتلد غلامًا يقاتل في سبيل الله، فقال له الملك: قل إن شاء الله، فلم يقل، فلم تحمل امرأة منهن إلا امرأة واحدة حملت، فولدت نصف إنسان، وابتلاه الله تعالى.. ومنها أنه كان أصاب من بعض نسائه في حالة الحيض، فابتلاه الله تعالى.. وغير ذلك من الأقوال.

قال التلميذ: فما القول الذي تراه راجحًا؟

قال الشيخ: لقد بقيت عشرين سنة أحقق في المسألة.. وقد عرفت بعد البحث الطويل أن السبب في ذلك هو أنه تزوج بامرأة؛ فعبدت المرأة صنمًا في داره من غير أن يشعر بذلك، فابتلاه الله تعالى لغفلة^(١)..

(١) تفسير السمعاني (٤/ ٤٤٣)

قال تلميذ آخر: بالمناسبة - سيدنا- هلاً حكيّت لنا
قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ، والتي ورد ذكرها
في القرآن الكريم.

قال الشيخ: تلك المرأة هي بلقيس بنت شراحيل.. وقد
ذكر الثقة أنه ولدها أربعون ملكاً، آخرهم أبوها.. وكان
أحد أبويها من الجن^(١)..

قال التلميذ: عجباً لهم كيف طاب لأهل اليمن أن يولوا
أمرهم امرأة؟

ضحك الشيخ، وقال: كيف تنتظر من قوم يعبدون
الشمس أن يفطنوا إلى هذا.. ولهذا ورد عن سلفنا الصالح
ذم أهل اليمن وغبائهم، فعن خالد بن صفوان قال واصفاً
أهل اليمن: (هم من بين دابغ جلد، وساييس قرد، وحائك
برد، ملكتهم امرأة، ودل عليهم هدهد، وغرقتهم فأرة)^(٢).

قال التلميذ: فحدثنا عن الهدية التي أهدتها له.. ما

(١) تفسير السمعاني (٤ / ٨٩)

(٢) تفسير السمعاني (٤ / ٩٠)

كانت؟

قال الشيخ: لقد روي في مصادرنا الموثوقة أنها كانت مائة غلام، ومائة جارية.. وقيل: إنها أرسلت إليه مائتي غلام ومائتي جارية، وكان بعضهم يشبه البعض في الصورة والصوت والهيئة، وقالت للرسول: قل له: ليميز بين الغلمان والجواري^(١).

قال التلميذ: بربك سيدنا كيف استطاع سليمان عليه السلام أن يميز بين الغلمان والجواري؟

قال الشيخ: لقد قمت بتحقيق علمي مفصل في ذلك استغرق مني زمناً طويلاً.. وها أنذا أقدمه لكم مجاناً.. لقد وصلت إلى أنه أمرهم بالجلوس ودعا بالغلمان والجواري بأن يتوضئوا، فمن صب الماء على بطن ساعده قال: هي جارية، ومن صب الماء على ظهر ساعده قال: هو غلام.. وقد ذكر آخرون أنه جعل من بدأ بالمرفق في الغسل غلاماً، ومن بدأ بالزند في الغسل جارية.. وذكر

(١) تفسير السمعاني (٤/ ٩٦)

آخرون أنه جعل من أغرف الأناء غلامًا، ومن صب على يده جارية.. وكل ذلك غير صحيح.. والصحيح ما ذكرته لكم.

قال تلميذ آخر: فما قصة القصر الممرد من قوارير؟
قال الشيخ: لقد بحثت في ذلك أيضًا.. وقد وصلت إلى أنه جعل تحته تماثيل من الحيتان والضفادع، وكان الواحد إذا رآه ظنه ماء.. وقد أمر سليمان عليه السلام أن يوضع سريره في وسط الصرح، ثم دعا بلقيس إلى مجلسه، فلما وصلت إلى الصرح ونظرت ظنت أنه ماء، فكشفت عن ساقها لتدخل في الماء، فصاح سليمان: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ (النمل: ٤٤).

قال التلميذ: فلم صنعه.. ولم كشفت عن ساقها؟
قال الشيخ: لقد قيل لسليمان عليه السلام أن على رجليها شعرا كثيرا.. أخبرته الجن بذلك.. فأراد أن يتأكد.
قال التلميذ: فهل وجد الجن صادقين فيما ذكروه؟
قال الشيخ: أجل.. وقد ذكر تقائنا من أهل التفسير: أن سليمان عليه السلام قال للشياطين: ما الذي يذهب الشعر؟

فاتخذوا النورة، وهو أول من اتخذ الحمام والنورة.

قال التلميذ: فلم استقدمها لقصره؟

قال الشيخ: ذلك واضح.. لقد أراد أن يتزوج بها،
فقصد أن ينظر إلى ساقها^(١).

قال تلميذ آخر: شكرًا جزيلاً شيخنا.. لقد عرفنا اليوم
من قصة سليمان عليه السلام ما لم يكن لنا أن نعرفه لولاك..
ولكن ألا ترى أنه كان له اهتمام كبير بالنساء؟

قال الشيخ: أجل.. فقد خلق الله - عز وجل - الأنبياء
والرسل، وفضلهم على سائر البشر، ومن تلك الفضائل
القوة في هذا الجانب.. فقد أقر بذلك علماء الأمة سلفاً
 وخلفاً؛ وذلك لأن النقص في هذا الشيء يعد عيباً،
وحاشاهم - صلوات الله وسلامه عليهم - أجمعين عن
العيب والنقص، فالأنبياء معصومون.

وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن
النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على

(١) تفسير السمعاني (٤/ ١٠٢)

سبعين امرأة، تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله. فلم يقل، ولم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أهد شقيه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو قالها لجاهدوا في سبيل الله).

وقد علق النووي على هذا الحديث بقوله: (وفي هذا بيان ما خص به الأنبياء - صلوات الله تعالى وسلامه عليهم - من القوة على إطاقة هذا في ليلة واحدة، وكان نبينا ﷺ يطوف على إحدى عشرة امرأة له في الساعة الواحدة، كما ثبت في الصحيحين، وهذا كله من زيادة القوة^(١)).

وقال المناوي: (إن سليمان ﷺ تمنى أن يكون له ملك لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطي الملك، وأعطي القوة في الجماع؛ ليتم له الملك على خرق العادة من كل الجهات؛ لأن الملوك يتخذون من الحرائر والسراري بقدر ما أحل لهم ويستطيعونه، فأعطي سليمان ﷺ تلك

(١) شرح صحيح مسلم، النووي، (٦/ ٢٥٧٠) ..

الخصوصية ليميز بها عنهم، فكان نساؤه من جنس ملكه الذي لا ينبغي لأحد من بعده^(١).

قال تلميذ آخر: فحدثنا عما فعله سليمان عليه السلام بالخيال لما شغلته عن الصلاة.. كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)﴾ (ص: ٣٠ - ٣٣).

قال الشيخ: لقد بحثت في ذلك.. وقد وصلت إلى أن سليمان عليه السلام عرض عليه الخيل الجياد في وقت العصر، فألهاه هذا العرض عن صلاة العصر، فلما اقترب المغرب غضب، وطلب من الله أن يرد الشمس بعد أن غربت ليصلي العصر فردت.. وكصورة من غضبه على الخيل لأنها كانت السبب في فوات العصر وألهته عن الصلاة

(١) فيض القدير، المناوي، (٤/ ٦٥٩)..

قام وقطع سوقها وأعناقها مسحًا بالسيف.

قال التلميذ: فكيف تعلل هذا السلوك من سليمان
عليه السلام، ولم عذب الحيوان بالعرقبة، وأهلك مالا من ماله
بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا
ذنب لها؟

قال الشيخ: لقد بحثت في ذلك.. وقد وصلت إلى أنه قد
يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضبا
لله عز وجل بسبب أنه شغل بها حتى خرج وقت الصلاة؛
ولهذا لما خرج عنها الله تعالى عوضه الله تعالى ما هو
خير منها وهي الريح التي تجري بأمره رخاء حيث
أصاب غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من
الخيال^(١).

بقي الشيخ إلى الليل.. وهو يجيب عن كل سؤال،
ويذكر من الأقوال العجيبة فيه ما جعل القرآن الكريم في
ذهني وأذهان تلاميذه كتابًا لا يختلف عن كتاب ألف ليلة

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٦٥/٧.

وليلة.. ولا يختلف عن الحكايات والأساطير التي كان يحكيها النضر بن الحرث لقومه من قريش ليشغلهم بها عن القرآن..

وللأسف مات النظر بن الحرث الجاهلي.. وخلفه كثير ممن لا يقلون عنه من المسلمين..

قلت في نفسي، وأنا عائد إلى بيتي ممتلئاً حزناً: (لقد استطاع الشيطان في الأخير أن يحيي أساطير النضر)

سمعت صوتاً مزعجاً لست أدري مصدره، يقول لي: (.. لا.. بل فعلت ما هو أخطر من ذلك.. لقد حولت كلام ربكم إلى أساطير مقدسة بعد أن كانت أساطير خرافة وتسلية).

تم الجزء الاول
ويليه الجزء الثاني بإذن الله

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٤	مقدمة
١٢	الإشارة والعبارة
١٣	الإشارة
٣٨	العبارة
٤٧	العبرة والأسطورة
٥١	العبرة
٦٨	الأسطورة
٩٦	فهرس الكتاب